نحو تأسيس جديد لعقلانية ماركس النقدية

بقلم د/ أحمد كشي
جامعة الجزائر 2

Résumé :

Ce texte s'insère dans la perspective d'une esquisse de réinterprétation de la théorie critique que Marx a développé dans ses œuvres, particulièrement dans celles dites de maturité.Une réinterprétation vraiment ambitieuse de Moishe Postone qui refonde la rationalité critique de Marx non pas sur la base des contradictions entre les rapports sociaux de production et les forces productives capitalistes, sur la propriété privée, ou encore, sur le caractère spontané du marché et la forme de distribution des marchandises qui en découle, comme c'est le cas de rigueur perceptible sur l'attitude des penseurs du marxisme traditionnel, mais sur la nature du « travail sous le capitalisme », ce qui est fondamentalement différent de la « critique du capitalisme du point de vue du travail ». Ainsi, Moishe Postone réconceptualise la rationalité critique de Marx pour en faire un outil de compréhension et de transformation efficace de la réalité sociale, le plus adéquat à la fin du 20eme siècle et du début du troisième millénaire.

نشر **"موشي بوستن"** (1942...) MoishePostoneكتابا بعنوان " **زمن، عمل وسيطرة اجتماعية. تأويل جديد لنظرية ماركس النقدية**." و على وجه التحديد، جاء الكتاب موسوما، في لسانه الأصلي، بـ" Time, laborandsocialdomination . AreinterpretationofMarx'scriticaltheory . طُبع الكتاب أول مرة في سنة 1993 ثمّ أُعيد طبعه ثلاث سنوات بعد الطبعة الأولى، على ان طُبع للمرة الثالثة سنة 2003، وهي طبعة منقّحة في بعض فصول الكتاب، تحت ادارة منشورات كامبريج الجامعية (Cambridgeuniversitypress).

إذا نظرنا في فلسفة **"ماركس"** من الزاوية التي يقترحها علينا " **موشي بوستن"** الواردة في كتابه المذكور اعلاه، فإنها تبدو على شكل تيار فلسفي نقدي في صلبها، و ذلك هو الأمر الذي اعلنه **"ماركس"** منذ البداية، بالاعتماد

على ما ورد عنه في **"الحوليات الفرنسية-الألمانية"** حيث نعثر على كلامه الآتي نصّه:

"بوسعنا تلخيص كلية ما نتوخاه من جريدتنا هذه في بناء وعينا التاريخي الراهن، بما يحمل من ألام الكفاح و آماله الواعدة، على أساس واحد: الفلسفة النقدية."[1]

يعيّن **"ماركس"** من خلال كلامه هذا، مجال البحث الفلسفي الأصيل، في المساءلة النقدية قصد إماطة اللثام عن قدرات العقل على فهم واقع القوى المنتجة من منظور طبيعة العلاقة التي تربطها بعلاقات الإنتاج الاجتماعية المعيش أوّلا، ثم مقارنة ما يحمل ذات الواقع من الخصائص، بما تبقى من القيّم التي اعلنها صُنّاع الثورة البورجوازية على نحو المساواة في الاستحقاق و تكافؤ الفرص و الحرية و ارساء قواعد السلوك الإنسانوية، بحثا عن أنجع السُبل لتغييره بغية تحسين ظروف الإنسان المادية و تحذيق قدراته العقلية و تهذيب بُعده النفسي لتحقيق إنسيته.

من هذا المنظور و على أساسه، يتخّذ كتاب **"موشي بوستن"** MoishePostone، اهمية جوهرية في الفضاء الثقافي الذي أسماه **جورج لوكاش** G.Lukacs **" الماركسية الغربية "** في مقابل ما عبّر عنه بدلالة **"الماركسية الارثودوكسية"**، نظرا لما ترك من آثار في الوسط الثقافي الأنغلو-ساكسوني على العموم، و بشكل خاص، النقاش الذي احتدم بين صاحبه و اعلام مدرسة فرانكفورت (**ماكس هوركايمر** HorkheimerMax و **فريدريش بولوك** FriedrichPollock) في ما يتعلق بملابسات التأسيس للعقلانية النقدية-من حيث هي وسيلة فهم الواقع وتغييره- بين أولوية البُعد الاقتصادي الذي قال به أعلام الماركسية التقليدية والأبعاد السياسية والأخلاقية والدينية والفعل التواصلي.

كان اعلام المؤسسون لمدرسة فرانكفورت حاملين آمال ثورية لمجتمع ارادوه مُقعدا، في جوهره، على **العقل الكلي** لما يفترض من قدرة فهم وخاصة قدرة التغيير لمستجدات العصر المترتبة على "الفشل" الذي لحق بثورة العمالة الصناعية، فضلا عن تقاعس الفاعلية الماركسية على المستوى النظري والعلمي، على إثر اتخاذها صفة الوثوقية الغليظة المتزامنة مع بلوج الفاشية وانتقال الاقتصاد الرأسمالي من الشكل الليبيرالي إلى الأشكال الاحتكارية، من جهة، وما أفرزت من ذهنيات استعمارية المتقاطعة مع ظهور مفهوم الثقافة الشعبية، من جهة أخرى. لكن هبّت رياح آمالهم بما لم تشته سُفن **"المنفى الامريكي"** الذي فرضته الظروف المانيا السياسية والاجتماعية، فسكّن من حرارة مراميهم الإنسانوية و اهدافهم الحضارية، إذ جعلهم يدركون أن سقوط

الدكتاتوريات في العالم المعاصر لم يكن نتيجة لفاعلية حُب الرفعة الذي يلازم "العقل الكلي" (Laraisonuniverselle) في الوجود، إنما كان ذلك نتيجة لحرب ضروس التي آتت على الأخضر و اليابس، بما فيها من منظومات القيم و أشكال التنظيم الاجتماعي؛ و على هذا الأساس، انكشف انتصار العمالة الصناعية على "المستغلين" في صورة توحي بأنه لم يكن نتيجة لأثر العقل الكلي في الصيرورة التاريخية، حين اتخذت "الثورة الاشتراكية" شكل مقبرة واسعة التهمت الحرية المنشودة عندما تحوّلت إلى منظومة صنمية، إلى "**كلية مُغلقة**" حنّطت تلقائية العقل النقدي لإحلال محلّها عقلا عقائديا متحجّرا اتخذ ذاته معيارا نهائيا للحقيقة.

والحال تلك، ظهر العالم المعاصر لأعلام مدرسة فرانكفورت، غارقا في اوحال الشوائب الحاملة لشتّى الامراض الاجتماعية من جرّاء "**السيطرة** "المشخّصة اساسا في :

-تسلط البضاعة الغاشم، فرضته آليات الانتاج الرأسمالية، نستشفه في ظاهرة "الوثنية الجديدة"(التشيؤ) وما يلزم عنها من زيغ الإنسان عن إنسيته.

-هيمنة الفاشية و القمع الستاليني.

في النتيجة، تخلّص الانسان من قسوة الطبيعة حين حوّلها من كونها طاغية إلى كونها طائعة بواسطة مفعول نشاطه المنتج، لكنه وقع في عبودية أخرى جسيمة، عتية، لأنها غير معيّنة الجهة بشكل مادي مشخّص، فالتهمت الإنسان ماديا و اجتماعيا و نفسيا على نحو لم يسلم من شوائبها لا المسيطر و لا المسيطر عليه على السواء، حالما انتقل العقل من الصفة التقدمية المؤنسنة إلى الصفة الأداتية المشيّئة.

هذا، اعتمدت العقلانية الشمولية على "**التقنية**" بصفتها وسيلة التحكّم في بُعدي الطبيعة (الفيزيائي والبيولوجي) وفي أبعاد الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والروحية. بيد أن **التقنية** لم تبق مجرّد وسيلة لتحقيق غاية أعلى و أسمى منها، بل أصبحت غاية في حد ذاتها؛ وعلى أساس هذا الاعتبار، أضحى أمر المساءلة عن السُبل التي يجب حذوها لتجاوز أوضاع الانسان المزيّفة، حتميا. وبناء عليه، اتخذت **العقلانية النقدية** في الماركسية الغربية، اهمية بليغة، ليس فقط بالنظر إلى فاعليتها في فهم الواقع، بل فضلا عن ذلك وبالخصوص، بالنظر إلى سعة وحجم وظيفتها في احداث التغيّرات المناسبة في الحياة الاجتماعية؛ و ذلك هو الأمر الذي يفسر أهمية النقاش بين "**موشي بوستن**" وأعلام مدرسة فرانكفورت لتأسيس العقلانية النقدية على أرضية ابيستيمية تتقصّى الفاعلية و النجاعة.

وإن كانت قيمة النقاش العلمية وحدّته وموافقته للظروف التاريخية التي تمر بها المنظومة الاقتصادية الكلاسيكية الجديدة، مثيرة للاهتمام بشكل كبير، فيبقى ما يهمنا في هذا المقال، مشخصا في تعيين اثر مضمون ذات الكتاب في منحى الفلسفة **"الماركسية الغربية الجديدة"**، على نحو **النظرية النقدية والأنطولوجيا الماركسية**، اي الأنطولوجيا في صورتها "اللوكاشية" وما توحي به من الإنسانوية. وبتعبير آخر، نصبو من خلال هذا المقال إلى كشف النقاب عن "نوعية النقد" الذي وجّهه **"موشي بوستن"** MoishePostone إلى **الماركسية الأرثدوكسية** التي يدلل عليها بدلالة " **الماركسية التقليدية**" اوّلا، و ما ترتّب عنه من تأويل جديد لعقلانية **"ماركس"** النقدية **"تحييننا لآثارها** " وهو الأمر الذي اعلنه في مستهل كتابه حيث نعثر على كلامه الآتي:

" أتمنّى أن أرسي قواعدا جديدة ذات فعّالية نقدية أكبر لكونها تناسب أكثر الظروف التي آلت إليه المنظومة الاقتصادية الرأسمالية."[2]

على هذا الأساس، نستهل هذه الدراسة بتحديد الملامح الابيستيمولوجية التي أسّس عليها "الماركسيون التقليديون" **عقلانية ماركس النقدية** التي اتخذوها وسيلة للكشف عن عيوب المنظومة الاقتصادية الرأسمالية وجعلوا منها أداة للاهتداء إلى السُبل المؤدية إلى التخلّص من ادران وشوائب آليات الانتاج الرأسمالي في صورتيها الحديثة والمعاصرة، التي تغطي نشاط الانسان المنتج وما يترتب عنها من طبيعة علاقات الانتاج في الحياة الاجتماعية.

أُسس عقلانية ماركس النقدية من منظور الماركسية التقليدية:

انطلق **"موشي بوستن"** في تحديده لأسس عقلانية **"ماركس"** النقدية من تحليل نقدي للروافد التي أقعد عليها اعلام ما اسماه "الماركسية التقليدية" بصفتها موقفا علميا و مقاربة منهجية خاصة و مميّزة التي حدّدها بكلامه ما نصّه:

"...لا اقصد بعبارة "الماركسية التقليدية" منحى فكري تاريخي محدّد في الفلسفة الماركسية، إنما أعني بالدلالة، كل المقاربات النظرية التي تتعاطى الرأسمالية من وجهة نظر العمل انطلاقا ممّا سُمي الطبقية والتملُك الفردي لوسائل الانتاج و السوق."[3]

المقصود من **"الماركسية التقليدية"** إذن، هو قالب قراءة (matricedelecture) معيّن من فلسفة التاريخ الماركسية؛ وهو الموقف الذي شكّل مرجعية ابيستيمولوجية في تأويل تراث **"ماركس"** الفلسفي؛ المرجعية الابيستمولوجية التي نستشفها في تصور شامل يمثل محل اتفاق أعلام الأرثودوكسية الماركسية والقائم على معول أسّس التضاد بين الطابع الاجتماعي والجماعي الذي تتسم به سيرورة و صيرورة القوى المنتجة

المتنامية، من جهة، و الطابع الفردي الخاص و الثابت الذي يلازم آليات الانتاج في اقتصاد السوق (علاقات الانتاج الاجتماعية في المنظومة الرأسمالية) المؤسّس جوهريا على حرية المبادرة في مختلف مستوياتها و ما يفترض ذلك من تلقائية العرض و الطلب و"اللاتخطيط الصوري" في تنظيم الحياة الاقتصادية على وجه الخصوص، من جهة اخرى. و بتعبير آخر، يقدّم اعلام الماركسية التقليدية، ظاهرة "جتمعة" وسائل الإنتاج وقوى العمل (lephénomènedelasocialisationdesmoyensdeproductionetdesforcesdetravail) على انها النقيض التام لطبيعة آليات الإنتاج في اقتصاد السوق، اعتبارا أن عمليات الانتاج تتم بشكل جماعي وفي ذات الوقت يتخذ الربح طابعا فرديا. وبناء عليه، تبنّى الماركسيون التقليديون- بغض النظر عن اختلاف تصوراتهم - فكرة محورية مفادها أن في مرحلة معيّنة من نمو القوى المنتجة (قوى العمل + وسائل الإنتاج)، يتعذّر على الطبيعة الثابتة الملازمة لعلاقات الإنتاج الرأسمالية، احتواء درجة التطور وسائل الإنتاج و قوى العمل؛ ممّا يؤدي إلى توتر متزايد في العلاقة الرابطة بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة، وهو التوتر الذي يُسبب اختلال التوازن في "كلية" المنظومة الاقتصادية، فيعكّر صفوة آلياتها الانتاجية محدثا بذلك أزمة لا يمكن تجاوزها إلاّ بضرورة احداث تغييرا مناسبا في علاقات الانتاج لإعادة التوازن بينها وبين القوى المنتجة.

من هذا المنطلق، وبالاعتماد على مقولة "**ماركس**" الشهيرة "...سيخرج النظام الاشتراكي من أحشاء الرأسمالية المتوترة."، تتخذ عمليات الإنتاج الصناعية المتنامية في المنظومة الاقتصادية الكلاسيكية- لدي الماركسيين التقليديين- قاعدة للانتقال الحتمي إلى الاقتصاد الاشتراكي، من حيث هو السبيل الوحيد الذي بوسعه أن يتجاوز العلاقة المتوترة القائمة بين التملك الفردي لوسائل الإنتاج وجتمعة القوى المنتجة. هذا التصوّر لرافد قاطرة الصيرورة التاريخية هو الذي نستشفه مبكرا لدى "**فريدريش انغلز**"(1820-1895)FriedrichEngels الذي كتب بهذا الصدد ما نصّه:

"...تغيير وسائل الإنتاج التي انفرد بها العمال الخواص غير المهيكلين إلى وسائل الإنتاج مركّزة اجتماعيا أدّى إلى تأسيس ملابسات قيام رأس المال. بمجرّد ان تحوّل العمال من صفتهم الطبيعية(إنتاج قيم استهلاكية) إلى صفتهم عمالة صناعية(إنتاج قيم تبادلية) وما ترتّب عن ذلك من تغيير على نحو تغيير شروط العمل الطبيعية إلى شروط العمل الاجتماعية المؤسّسة لرأس المال؛ و بمجرّد أن يقوم اسلوب الإنتاج الرأسمالي على رجليه، فإن جتمعة العمل و تغيير شكل الأرض و وسائل الإنتاج آتية حتما، لتتخذ صورة جديدة."[4]

هذا التصوّر الجدلي للصيرورة التاريخية -ما يسمى في ادب الفلسفة الماركسية "المادية التاريخية"- هو الذي تلقّفه "**فلادمير إليتش لينين**"(1870-1924)VlademirIllitchLenine و من حذا حذوه؛ وعلى إثره تأسس قالب قراءة الماركسية التقليدية (la matrice delecturedumarxismetraditionnel) الذي شكّل "مادة نقد" و موضوع التحليل و التفكيك ل"**موشي بوستن**"MoishePostone .

على أساس ما تقدم، يبدو واضحا أن أعلام الماركسية التقليدية قد أسّسوا عقلانية "**ماركس**" النقدية على:

1-التناقض الظاهر على العلاقة التي تربط القوى المنتجة بعلاقات الانتاج الرأسمالية.

2-الملكية الخاصة لوسائل الانتاج الصناعية.

3-طبيعة السوق في المنظومة الاقتصادية الرأسمالية، أيّ كيفية توزيع منتجات العمل على الفاعلين في النشاط الاقتصادي في الحياة الاجتماعية.

نقد "موشي بوستن" للماركسية التقليدية:

هذا، يرى "**موشي بوستن**" MoishePostone أن العيب الأصيل الذي يلازم " قالب قراءة" الماركسية التقليدية (traditionalmarxism)- بغض النظر عن من يمثلها- يتعيّن بالتحديد في أن نقد المنظومة الاقتصادية الرأسمالية يرتكز على فكرة محورية مؤداها أن مصدر الحيف والجور والهيمنة والتسلّط(**السيطرة**) في اسلوب الانتاج الذي يلازم اقتصاد السوق، يُلمس في الكيفية التي يتمّ بمقتضاها توزيع صنيعات العمل على الشرائح الاجتماعية التي تشكل النسيج المدني وما ينجر عنها من تفاوت غير شرعي بين الفاعلين في الحياة الاقتصادية، في حين أن "**ماركس**"، من منظوره، (MoishePostone)، كان يكيل ضرباته الحادة ل"الكيفية الخاصة" التي تميّز "شكل الإنتاج في صورته الرأسمالية". وبتعبير آخر، يرى "**موشي بوستن**" أنه بدل أن يبني الماركسيون التقليديون انتقاداتهم على أساس طبيعة العمل في اطار اسلوب الإنتاج الرأسمالي كما فعل "**ماركس**" في اعمال سنوات النضج التي حدّدها في **أسس نقد الاقتصاد السياسي**(Grundrisse) المدوّنة في اربعة اجزاء؛ والحقيقة في اعتقدنا، أن "**ماركس**" قد فعل ذلك بدء من اعمال سنوات شبابه(lesœuvresdejeunesse)، و نستشف ذات الموقف في كلامه ما نصّه:

"نصل الآن إلى نتيجة مؤداها أن الانسان(العامل) لا يشعر بحريته ولا يتمتّع بإنسيته في ممارسة نشاطه الرسمي، إنما يشعر بالسعادة و الحرية عندما

يباشر نشاطه الغريزي على نحو الأكل والشرب والتناسل للإنجاب. هكذا، تتحوّل الممارسة الغريزية في صورتها الفجّة الحيوانية إلى ممارسة إنسانية، والممارسة الإنسانية الحقيقية(العمل) تتحوّل إلى ممارسة حيوانية. صحيح أن الأكل والشرب والتناسل للإنجاب وظائف طبيعية وممارسات انسانية اصيلة من المنظور المطلق، لكن حالما تُعزل هذه الممارسات عن طبيعتها و تستقطب الإرادة الإنسانية، فإنها تتخذ وبدون شك صفة الحيوانية."[5]

وهو النقد الذي يتخذ شكلا حادا في اعمال سنوات النضج التي أشار إليها "**موشي بوستن**"، المتمثلة في تلك التي انجزها تحت عنوان" **نقد الاقتصاد السياسي**" و"**نقد أسس الاقتصاد السياسي**" (في اربعة اجزاء) و" **رأسالمال**"، و هو النقد الذي يمكن تلخيصه في ما ورد عنه في "البيان الشيوعي" حيث كتب ما يلي:

"جرّد النظام البورجوازي النشاط الإنساني من ابعاده السامية و الوسيمة التي كانت تلازم الوظائف الاجتماعية المنوطة بالإنسان والمنظور إليها بعيون الاحترام المجاورة للقداسة الدينية؛ حوّل الطبيب ورجل القانون ورجال العلم والدين والشعراء إلى مجرّد عمال مأجورين تحت رحمة وتصرّف أصحاب رؤوس الاموال...كما نحّت الرأسمالية و مزّقت نسيج المحبة و الوئام الذي كان مسدولا على العلاقات القائمة بين افراد العائلة الواحدة لإحلال بينهم علاقات جافة، باردة تحكمها قوانين التجارة و المال."[6]

يتبيّن من خلال هذا الكلام أن "**ماركس**" كان يصوّب سهام انتقاداته للنظام الرأسمالي على اساس طبيعة آليات الانتاج الملازمة للمنظومة الاقتصادية الرأسمالية، وليس على اساس كيفية توزيع ثمار العمل(السوق) ولا حتى على أساس " التملّك الخاص" لوسائل الانتاج، وكأن نظام الإنتاج مستساغ في صورته الكلية لدى اعلام الماركسية التقليدية، إنما "المرفوض" فيه، صيغة توزيع الثمار ليس إلاّ؛ مما أدّى بهم إلى تأسيس مآخذهم على اسلوب الانتاج الرأسمالي على شكل توزيع صنيعات العمل، من منطلق أن "المنتجين"، (صُناع الثروة في الأصل)، لا ينالون منها سوى الفُتات بينما يستولي "غير المنتجين" على حصة الأسد، و بالمثل، ينتقدون منظومة اقتصاد السوق على أساس "تلقائيتها" ولما تستلزم من حيف وجور وتزييف لقيمة المنتجات الصناعية واستلاب و غير ذلك.

كان "**ماركس**"، من منظور "**موشي بوستن**"، يصوّب سهام انتقاداته للمنظومة الاقتصادية الرأسمالية على اساس "طبيعة العمل" السائدة في اسلوب الانتاج البورجوازي بالتحديد؛ ذلك هو الأمر الذي يعلنه في كلامه ما نصّه:

" إن قراءتي لنظرية ماركس النقدية تتأسس على تصوّره للعمل من حيث هو محور الحياة الاجتماعية. و بهذا الصدد، سأحاول اثبات أن معنى العمل في أعمال سنوات النضج لدى ماركس، مغاير تماما للمعنى المتداول في وسط الماركسية التقليدية الثقافي".[7]

يرى **"موشي بوستن"** أن تحوّل النظام الاقتصادي الرأسمالي من صفته الكلاسيكية إلى صفته الجديدة (économienéo-classique)، أزّم الموقف الماركسي التقليدي الذي أسّس عقلانية "ماركس" النقدية على التناقض القائم بين القوى المنتجة المتطورة، بحكم النشاط الاقتصادي المنتج على الدوام ، من جهة، و علاقات الانتاج الاجتماعية الثابتة، ثبات اسلوب الانتاج المحدّد لطبيعة النظام الاقتصادي، من جهة أخرى. صحيح أن "ماركس" أكّد ظهور تناقض، في مرحلة معينة من تطوّر الاقتصاد الرأسمالي، بين علاقات الانتاج الاجتماعية و القوى المنتجة. غير أن التناقض الذي كشف عنه "ماركس" أوّله اعلام الماركسية التقليدية على نحو يجعله لا يجدي نفعا في السعي إلى احداث التغيّرات الجذرية التي ترقى إلى مستوى الطموح الثوري المعلن ي بمجرّد احلال التقابل بين الملكية الخاصة و السوق، من جهة، و اسلوب الانتاج الصناعي من جهة أخرى، بحيث تدلل الملكية الفردية لوسائل الإنتاج و طبيعة السوق على الملامح المميّزة للنظام الاقتصادي الرأسمالي، في حين تنمّ وتيرة عمليات الانتاج الصناعية على بوادر حتمية اقامة النظام الاشتراكي مقام نظيره الرأسمالي للتجاوز توتر آليات الانتاج التي تنخرها التناقضات الجوانية و البرّانية في نفس الوقت. هكذا، إذا كانت القوى المنتجة- التي يراها ماركس مناقضة لعلاقات الانتاج- مشخّصة في اسلوب الانتاج الصناعي، فيلزم عنه أن اسلوب الانتاج مجرّد تقنية عمل يلجأ إليها العمال تيسيرا لإنجاز مهامهم ولا علاقة لها بماهية الاقتصاد الرأسمالي، اعتبارا أن الماركسية التقليدية تردّ ماهية المنظومة الاقتصادية الرأسمالية في الأساس، إلى التملك الفردي لوسائل الانتاج الصناعية وإلى الظروف التي تُثمّن رأس المال فضلا عن طبيعة السوق. تلك هي العوامل التي تعكّر صفو الانتاج في اعتقاد الماركسيين التقليديين. والحال تلك، يكون التسلُّطوالهيمنة الاجتماعيين الملازمين للاقتصاد الرأسمالي، خارجين عن نطاق طبيعة الانتاج الصناعية. وعلى هذا الأساس، يغدو الاقتصاد الاشتراكي محدّدا في التملك الجماعي لوسائل الانتاج بما يفترض ذلك من "التخطيط" في اطار الانتاج الصناعي المنسجم مع وتيرة تطور القوى المنتجة. وبناء عليه، اعتبر الماركسيون التقليديون أن مسألة التجاوز النظام الرأسمالي، أيّ مسألة نفيه تاريخيا، وقف على إلغاء الطبقية وما ينجرّ عنها من استغلال

مُلاك وسائل الانتاج لأصحاب قوى العمل. ذلك هو الأمر الذي شكّل محل اجماع بين الماركسيين التقليديين، من منطلق أن:

"في قلب أشكال الماركسية التقليدية، صورة للعمل مشتركة تكشفه على نحو يتخذ شكلا عبرتاريخيا، من منطلق أنه نشاط اجتماعي موجّه صوب تحقيق غاية، فيتوسط بصفته تلك، العلاقات القائمة بين الانسان و الطبيعة، علاقات التي تنتج ثمارا تسدّ حاجات الانسان. ومن حيث هو كذلك، يبدو العمل مشخّصا لكلية الحياة الاجتماعية و منبعا لكل ثرواتها."[8]

وذلك بالتحديد، هو الأمر الذي" **أزّم** "موقف الماركسية التقليدية في نظر "موشي بوستن" الذي يقول في هذا الاطار ما يلي:

"تبدو النظرية الماركسية التقليدية عاجزة بشكل متصاعد مع مرور الوقت، على تأسيس عقلانية تتناول نقديا الرأسمالية في صورتها ما بعد الليبيرالية، و من ثمّ، لم يبق لها سوى اختياران:

إما أن تعلّق المستجدات الكيفية التي ظهرت على رأسمالية القرن العشرين، فتخصّ بانتقاداتها ما تبقى من عيوب التوزيع فيها، لتتحوّل إلى عقلانية نقدية مبتورة لأنها جزئية.

إما أن تبقى سجينة عيوب الرأسمالية في القرن التاسع عشر."[9]

وعلى هذا الأساس، يظهر واضحا أن تأسيس نقد المنظومة الرأسمالية على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى الكيفية التي بمقتضاها يتم توزيع ثمار العمل على الفاعلين في الحياة الاقتصادية، لم يعُد كافيا لتحقيق ما نتوخاه من العقلانية النقدية على العموم، من حيث هي وسيلة فهم الواقع و تغييره، وخاصة ما نتوخاه من عقلانية ماركس النقدية، بالنظر إلى مستجدات العصر وما افرزت من مشكلات على نحو تسلّط أشكال الانتاج المجرّد الذي لم يسلم منه لا اصحاب قوى العمل ولا ملاك وسائل الانتاج، وأشكال التبعية الصورية لما تفترض من افتقار الانسان المعاصر-بغض النظر عن الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها- إلى استقلال الذات بذاتها وتطلعه إلى الحرية السياسية، و مشكلات التمييز العنصري و مشكلة الأقليات الاثنية، فضلا عن مشكلات البيئة مثل التلوث واحتباس الحرارة (Réchauffementclimatique, problèmesinhérentsàlacouched'ozone...) ...إلخ. غير أن ضيق الحدود النقدية الظاهرة على الماركسية التقليدية، لا يعني بأية حال من الأحوال أن عقلانية "ماركس" النقدية لا تجدي نفعا و لا تغني فتيلا في الحياة الاجتماعية المعاصرة، كما اعلن "**ماركسيون الردّة**"، بل يرى "موشي بوستن" أننا أحوج إليها في هذه الظروف على وجه التحديد، شريطة أن نقعدها على

الأساس المناسب أولا (كما فعل ماركس)، ثمّ يتعيّن علينا أن نحسن توظيفها ثانيا حتى نتحاشى مواطن الزلل التي وقع فيها الماركسيون التقليديون حين حادوا و زاغوا عن حقيقة طبيعة العمل كما تصوّرها **"ماركس"**، اعتبارا مقولة العمل الماركسية، من حيث هي دلالة على نشاط الإنسان الخلاق لكل أشكال الثروة، و اعتباره(العمل) من المنظور الانثروبولوجي العام الذي نعثر عليه في كل الازمنة ولدى كل التنظيمات الاجتماعية بدون تمييز بين أشكالها الاقتصادية و الاجتماعية، في حين كان **"ماركس"** يتصوّر العمل على أنه مقولة مركزية في تحديد طبيعة علاقات الانتاج الاجتماعية الخاصة بأسلوب العمل الذي يميّز المنظومة الاقتصادية الرأسمالية في التاريخ الحديث. و بتعبير آخر، يرى "موشي بوستن" أن العمل في تصوّر "ماركس"، نشاط اجتماعي يعبّر عن اسلوب انتاج معيّن، في حقبة معيّنة من تطور المنظومة الاقتصادية التي تحتويه في مرحلتها التاريخية المحدّدة المكان. وبالفعل، ذلك هو المعنى الذي نستشفه لدى "ماركس" من خلال كلامه الآتي:

" لا اعني بالعمل نشاط الانسان فحسب، بل اقصد العمل الاجتماعي. إن الانسان الذي ينتج شيئا لقضاء حاجة مباشرة للإشباع الذاتي، يصنع انتاجا لا يجمعه بالمجتمع أيّ جامع. غير أنه إذا اراد أن يصنع بضاعة، فعليه أن ينتج شيئا يسدّ بواسطته حاجة اجتماعية محدّدة، بحيث يكون فعله جزءا لا يتجزأ من المجموع الكلي للعمل الذي يبذله كل افراد المجتمع، أي يجب أن يكون عمله داخلا في اطار التقسيم الاجتماعي للعمل و في اطار منظومة اقتصادية محدّدة."[10]

وفي ذات الاتجاه، يضيف مدقّقا تصوّره لطبيعة العمل و هو يقول ما يلي:

"إن الهدف من العمل في اطار الاقتصاد الرأسمالي، يتعيّن في انتاج فائض القيمة. ومن هذا المنطلق، لا يُعدّ منتجا إلاّ العامل الذي يحقّق ربحا لصالح الرأسمالي أو ذلك الذي ينصبّ نشاطه في المجال الذي ينمّي رأس المال. و على هذا الأساس، يكون المعلّم غير منتج عندما ينمّي عقول تلاميذه خارج اطار النظام الاجتماعي السائد، و يكون منتجا عندما يدخل ذات النشاط في اطار التنمية لرأس المال المشغّل في مجال التعليم."[11]

يتجلّى من خلال هذا الكلام، أن العمل، في الواقع الاجتماعي المعيش-من منظور **ماركس**- يلازم أشكال اساليب الانتاج الاقتصادية فيفقد بُعده الانثروبولوجي وعبر-التاريخي. هذه الصفة التي يتخذها العمل، هي التي جعلها **"موشي بوستن"** مقولة مركزية في النقد الماركسي لآليات الانتاج الرأسمالية. بدل أن يكون العمل فينومينولوجيا كاشفة للذاتية الانسانية من خلال فاعليته الخلاقة، فيكشف عن ماهية الانسان الأصيلة و الطبيعية، مُظهرا قُدراته في

الصناعة المادية و الاقتصادية و الاجتماعية و العقلية و الاخلاقية و النفسية و الجمالية، بل العمل- من المنظور الماركسي- صانع للوجود الانساني في الأساس، إذ كتب بهذا الصدد:

"...في الوقت الذي يغيّر الانسان شكل الطبيعة، فإنه يغيّر طبيعته بالتحديد و ينمّي من ملكاتها."[12]، يبدو العمل في اسلوب الانتاج الرأسمالي، على أنه نشاط اجتماعي يأخذ صورة حرفة يقتات العمال بها ويسترزقون قصد حفظ البقاء، فيتسم بخصائص المنظومة البورجوازية الهيكلية و التنظيمية، ليخلق علاقات انتاج محدّدة الكيفية. و من هذا المنطلق، يظهر العمل في الاقتصاد الرأسمالي، على أنه الرافد الجوهري و المؤسّس للقاعدة التي تحدّد شروط المساواة بين البضائع و السلع في التبادلات التجارية الجارية . و في النتيجة، يصبح العمل تحت الفاعليات الاقتصادية الرأسمالية، لدى "ماركس"، مقولة اجتماعية مؤسّسة للقيمة؛ هذا ما يبدو جليا في كلامه الآتي:

" تبدو البضائع على شكل يوحي بالتناقض الصريح، من منطلق مادية اجسامها؛ و مع ذلك، فإن قيمتها لا تتضمّن ذرة واحدة من صفتها المادية. يمكن أن نقلّب بضاعة ما، من حيث أنها قيمة، على مختلف أوجهها، فلن نعثر على قيمتها، لأن قيمتها اجتماعية خالصة."[13]

تأسيس جديد لعقلانية ماركس النقدية:

انطلاقا من هذا التصوّر، تتجلّى نظرية **"ماركس"** النقدية على نحو يجعلها ليست فقط مغايرة للماركسية التقليدية، بل مضادة لها بالتحديد وبالخصوص، على أساس اعتبار أنه لا يتصوّر القيمة كمقولة عامة و شاملة التي تُحدّد وتضبط أسعار البضائع و السلع في السوق، كما فعل الاقتصاديون الكلاسيكيون على شاكلة **"د. ريكاردو"**D. Ricardoو**"آ. سميث"** A. Smith بل ضبط تصوّرها من منطلق طبيعة النظام الاقتصادي والاجتماعي وأسّسها على ما أسماه **"العمل الاجتماعي"** و**"العمل المجرّد"** المتزامن الوجود مع اسلوب الانتاج الرأسمالي، فهو مُعطى معه تلقائيا؛ وبالتالي لا يمكن أن يتنصّل منه، لا يمكن أن ينسلخ عنه. ذلك هو السبب الذي جعل مسألة تجاوز اقتصاد السوق، من المنظور الماركسي، وقف بالدرجة الاساسية، على التغيير الجذري لطبيعة اسلوب العمل وليس على تغيير الطريقة الخاصة بالمنظومة الاقتصادية الرأسمالية في توزيع منتجات النشاط الاقتصادي و لا على طبيعة العلاقة القائمة بين الانسان و المادة التي أثمرها النشاط الاجتماعي.

وبناء على هذا المعطى، شرع **"موشي بوستن"** في إعادة تأسيس عقلانية **"ماركس"** النقدية معتمدا على مقاربتين: مقاربة **"جورج لوكاش"** GeorgesLukacsالتي نعثر عليها في ما ورد عنه في كتابه الموسوم

ب**"تاريخ و وعي طبقي"**، و مقاربة اعلام مدرسة فرانكفورت من خلال ما ورد عن كل من **"ماكس هوركايمر"**MaxHorkheimer **و "فريدريش بولوك"** Friedrichpollock في مجال التأسيس للنظرية النقدية؛ و بهذا الصدد كتب ما يلي:

"إن شروعي في اعادة النظر في نظرية ماركس النقدية، جاء تحيينا لها قصد توقيد فاعليتها وجعلها في مستوى التغيّرات التاريخية التي ظهرت على اسلوب الانتاج الرأسمالي ما بعد الحداثة، معتمدا في ذلك على ما كتب ماركس تحت عنوان "أُسس نقد الاقتصاد السياسي" (Grundrisse)."[14]

خلافا عن غيره من المهتمين بالفلسفة الاجتماعية على العموم و بالتراث الماركسي خصوصا، يُقيم **"موشي بوستن"** نظرية **"ماركس"** النقدية على مقولة **"العمل الاجتماعي"** أيّ **"العمل المجرّد"**، من حيث هو رافد يؤسّس طبيعة علاقات الانتاج الرأسمالية ويحدّدها ماهويا، فتتخذ من خلاله، طابعا موضوعيا خاصا لا يمكن تعيينه بناء على الطبقية. وبين تأسيس طبيعة علاقات الانتاج الرأسمالية على العمل الاجتماعي أو على اساس مفهوم الطبقية، فارق كيفي عميق، عبّر عنه "موشي بوستن" بكلامه الآتي:

"إن الاختلافات القائمة بين **"التأويل المقولاتي"** لعلاقات الانتاج الرأسمالية و **"التأويل القائم على الطبقية"** جسيمة ومعتبرة. التأويل الأوّل مبني على نقد صورة العمل في الاقتصاد الرأسمالي. أما التأويل الثاني، فهو مبني على نقد الرأسمالية كنظام اقتصادي نوعي بالاعتماد على العمل. وعلى هذا الأساس، يترتب عن التأولين بون شاسع بين التصوّرين للتجاوز أساليب الهيمنة والتسلُّط التي تلازم آليات الانتاج في المنظومة الاقتصادية الرأسمالية."[15]

يعبّر **"موشي بوستن"** من خلال هذا الكلام عن تبعات الاختلاف القائم بين ما اسماه "التأويل المقولاتي" (Categorialinterpretation) و"التأويل المؤسّس على الطبقية"(Theclass-centeredinterpretation)، التي تظهر جلية عندما ننظر عن كثب في الكيفية الخاصة التي يؤثر بها "العمل الاجتماعي" أيّ "العمل المجرّد" في علاقات الانتاج الاجتماعية بصفتها جوهرا يحدّد ماهية اسلوب الانتاج، تماما كما يحدّد اسلوب الانتاج النظام الاقتصادي، على أن يكون في نهاية المطاف العمل الاجتماعي، بصفته معيارا للقيمة في الاقتصاد الرأسمالي، هو المؤشر الدال على سبيل التغيير المنشود الذي يتم بمقتضاه تجاوز اشكال الهيمنة و التسلُّط السائدة في العالم المعاصر. ذلك هو الامر الذي عبّر عنه "ماركس" في كلامه الآتي:

"ليس المجتمع الانساني مجرّد تجمّع افراد بشرية في محيط معيّن، إنما المجتمع الانساني واقع موضوعي يعبّر عن جملة العلاقات الاجتماعية التي تربط ذات الافراد في سيرورة حياتهم العملية."[16]

وعلى اساس هذا الاعتبار، ظهر لموشي بوستن أن التحليل الماركسي لطبيعة آليات الانتاج الرأسمالية، قد بيّن حقيقة مصدر الهيمنة و التسلُّط (**السيطرة**) حين ردّه إلى طبيعة نظام العمل لاجتماعي بما يفترض من التنصّل و الانسلاخ عن حيوية السيرورة الاجتماعية، فيرمي بذلك، معالم بناء الوجود الانساني في احضان التجريدات التي رسمت ملامح الحياة الاجتماعية على نحو نسف كل اشكال التلقائية الانسانية الواقعية في سيولتها الطبيعية المتأججة، من كل فضاء ومن كل مجال يتضمّن نشاط الاجتماعي المنتج؛ من منطلق أن العمل، من المنظور الماركسي، خلق مؤسسات اجتماعية مجرّدة التي **تسيطر** على افراد الانسانية وتتحكّم في مؤهلاتهم المعرفية المنتجة، كما تتحكّم بالمثل، في سرعة وتيرة تطورها التاريخية، على أن تتخذ ذات السيرورة التاريخية منحى في اتجاه يجعلها تفرض تقسيم العمل الاجتماعي، فيحصر ويُضيّق آفاق الافراد الشخصية والتلقائية الحيّة، إلى أن تتحوّل الفردانية الانسانية إلى مجرّد صورة "**عامل**"، بل إلى مجرّد صورة "**زمن عمل**" التي لا تتحرّر إلاّ بتحقيق ما أسماه **ماركس** "**الفرد الاجتماعي**" (individusocial).

والحال تلك، تتخذ قُدرات الانسان، في المنظومة الاقتصادية الرأسمالية، شكلا يجعلها متنامية الفاعلية، فتزداد قوة باستمرار؛ بيد أن ذلك يحدث على نحو يكشف الانسانية في وضعية اغتراب شامل، تسير بمقتضاه، بخُطى ثابتة نحو التحطيم الذات و تدمير الطبيعة في آن واحد. وفي النتيجة، يظهر الفاعلون في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية على شكل يوحي بأنهم لا يتحكّمون في صورة صنيعات نشاطهم ولا في مادتها أيضا و بالخصوص، ممّا يؤدّي بشكل **السيطرة** في اسلوب الانتاج الرأسمالي، إلى أن يجعل الهياكل النظامية المجرّدة و ما يلزم عنها من المؤسسات الاجتماعية، و الافراد الانسانية الذين شكّلوها، وجها للوجه. ذلك هو الامر الذي عبّر عنه "**موشي بوستن**" بكلامه ما نصّه:

"تنكشف السيطرة الاجتماعية في اطار النظام الرأسمالي، من خلال التحليل الماركسي، على شكل يوحي بأنها لا تمارسها فئة اجتماعية على فئة أخرى، إنما تمارسها بُنى اجتماعية مجرّدة على افراد الأُلفة البشرية الذين أسّسوها."[17]

هذا، قد نعثر على هذا الشكل من "**السيطرة**" في اعمال "ماركس" الشاب المعيّنة بالتحديد، في كتابه الموسوم بـ"مخطوطات 1844" و التي كان يدلل عليها بدلالة "الاستلاب"، ممّا يكشف فلسفة "ماركس" في صورة التيار

المتصل الذي لم يعرف ما أسماه "لويس التوسير" LouisAlthusser"**قطيعة ابيستيمولوجية**"؛ فإذا كان في فلسفة "ماركس" ما يمكن أن نسميه **قطيعة ابيستيمولوجية**، فإنها قطيعة مع الفلسفات المتداولة في عصره و ما قبل عصره. غير أن **السيطرة** التي تحملها دلالة الاستلاب في الاعمال التي انجزها وهو شاب، تنكشف في اعمال سنوات النضج على نحو أكثر حدّة: السيطرة على شكل الاستلاب، تنمّ عن حرمان العامل من ذاته حين "تتموضع" في الزمان و المكان. أما السيطرة في أعمال سنوات النضج الملموسة بالتحديد، في "أُسس نقد الاقتصادالسياسي"grundrisseoufondementsdelacritiquedel'économiepolitique و في "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" contribution à lacritiquedel'èconomiepolitiqueوفي "رأس المال"، فإنها مرتبطة بالتأسيس التاريخي للقوة و المعرفة الاجتماعيين القائمين بمعزل عن العمالة الصناعية؛ و هو الأمر الذي بيّنه "موشي بوستن" في كلامه الآتي:

"اعتمادا على مقولة رأس المال، يكشف ماركس السيطرة الاجتماعية على شكل القوة والمعرفة الاجتماعيين المؤسسين لكيان اجتماعي مجرّد، يبدو قائما بذاته ومستقلا عن الافراد الذين صنعوه وفي ذات الوقت يفرض عليهم سيطرة اجتماعية مجرّدة."[18]

وعلى هذا الأساس، لا يمكن ردّ هذا النوع من الهيمنة والتسلُّط إلى استغلال الانسان للإنسان في المجتمع الطبقي، ولا إلى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج من منطلق انها صنيعة آليات العمل ونتيجة لأسلوب الانتاج و ليست من مقدماته. والحال تلك، تتخذ السيطرة في العالم المعاصر، من المنظور الماركسي المؤسس على مقولتي رأس المال والقيمة، شكل الفاعلية التاريخية التي تفلت من ارادة صُنّاعها و تتحكّم فيها. وبتعبير آخر، يكشف التحليل الماركسي المبني على طبيعة النشاط المنتج في النظام الرأسمالي، حقيقة الفاعلية التاريخية، فتتخذ نظرية ماركس النقدية طابعا يتجاوز الاستغلال المشخّص و"موضعة الذات المغتربة" لتكشف عن طبيعة سيرورة وصيرورة المجتمع المعاصر؛ أيّ أن نظرية ماركس النقدية تتناول التاريخ من حيث هو صنيعة اجتماعية مستقلة عن صُناعها، و عليه، تكون مسألة تجاوز النظام الرأسمالي مرهونة بالتجاوز حالة التقابل بين الفرد و المجتمع لتحقيق "**الفرد الاجتماعي**" الذي يلغي عمل العمالة الصناعية(البروليتاريا) المشخّص لاستلاب العمل و العامل معا. وبهذا الصدد، كتب موشي بوستن ما يلي:

"إن مسألة تحرّر العمل و تنصّله من الاستلاب، يفترض ويستلزم بنية جديدة للعمل الاجتماعي، والسبب في ذلك راجع إلى أن العمل لا يصنع الفرد

الاجتماعي إلاّ عندما تكون طاقة القوى المنتجة موظّفة على نحو يغيّر جذريا نظام سيرورة العمل."[19]

في النتيجة، يتخذ كتاب "موشي بوستن" صفة تجعله بمثابة الفعل التأسيسي لمنحى نقدي جديد تحيينا لعقلانية ماركس النقدية حتى يجعلها في مستوى المستجدات التي ظهرت على النظام الاقتصادي الرأسمالي ما بعد الحداثة، فتُوظّف في اتجاه تيسير الادراك لأشكال السيطرة الاجتماعية التي يواجهها افراد المجتمع المعاصر، ومن ثمّة، رسم ملامح منهج يتم بواسطته تجاوز آليات الانتاج التي "تقّفص" الانسان فجعلته اسيرا لصنيعاته.

الهوامش:

1. Karl Marx, « Annales franco-allemandes » cité par Georges Labicat,le statut marxiste de la philosophie, P.U.F, Bruxelles, 1976, p 69.
2. Moishe Postone, Time, Labor and social domination . A reinterpretation of Marx's critical theory. Cambridge University Press, 2003, p 3.
3. Moishe Postone, Ibid, P 7.
4. Engels, Anti-Duhring . M.E.Duhring bouleverse la science. Traduction de Emile Bottegelli, troisième Edition, E.S, Paris, 1977, p 162.
5. Marx, Manuscrits de 1844 , présentation, traduction et notes de Emile Bottegelli, Editions Sociales, Paris, 1972, ,61،60.
6. Marx, Engels, Le manifeste du parti communiste, traduction de Corine Lyotard, introduction, notes et commentaires de François Chatelet, Librairie Générale Française, 1973, p 8.
7. Moishe Postone, Time, Labor and Social domination. A reinterpretation of Marx's Critical theory . Cambridge University Press, 2003, p 4.
8. Moishe Postone, Ibid , p 7,8.
9. Moishe Postone, Ibid, P 10, 11.
10. Marx, Salaire, Prix et profit, traduction des éditions sociales, Editions du Progrès, Moscou, 1955, p 27 .

11. Marx, Le capital, livre 1, tome 1, traduction de J . Roy, chronologie et avertissement par Louis Althusser, Editions Garnier-Flammarion ; Paris, 1969, P 364 .
12. Marx, Ibid. P 139.
13. Marx, Ibid, p 50.
14. Moishe Postone, Time, labor and social domination. A reinterpretation of Marx's critical theory. Cambridge University Press, 2003, P 15.
15. Moishe Postone, Ibid, P 29.
16. Marx, « Grundrisse » 2. Chapitre du Capital. Fondements de la critique de l'économie politique, traduit par Roger Dangeville, Editions Anthropos, 1968, p 38.
17. Moishe Postone, Time, Labor and social domination. A reinterpretation of Marx's critical theory. Cambridge University Press, 2003, P 30.
18. Moishe Postone, Ibid, P 32.
19. Moishe Postone, Ibid, P 33.